

التعليقات البهية
على القواعد الأربع العقديّة

للإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب

شرح
الشيخ / أحمد بن يحيى النجمي

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه وبعد :

فقد هيا الله في القرن الثاني عشر الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى فقام بدعوة التوحيد في نجد ، وكتب الله لها النجاح بعد جهادٍ مرير وطويل فألف المؤلفات وجاهد المشركين حتى دخلوا في دين الله ، وعادوا إلى رحابه فوحده .

ومن ضمن مؤلفاته ، وأعظمها نفعاً ؛ الثلاثة الأصول ، وكتاب التوحيد وكشف الشبهات ، والقواعد الأربع ، والتي هي مقصود بحثنا الآن قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله : (أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يتولاك في الدنيا والآخرة وأن يجعلك مباركاً أينما كنت) يا لها من دعوة ما أعظمها فمن تولاه الله في الدنيا والآخرة فقد فاز ، ونجا وحاز الدرجات العلا وأكرمه الله بالجنة التي من دخلها يحيا فلا يموت ، ويصح فلا يسقم ويشب فلا يهرم إذا تولاك الله في الدنيا يسر لك العلم الصحيح المأخوذ من الكتاب والسنة ووفقك للعمل به ، وإذا تولاك في الآخرة صرف عنك العذاب ، ويسر لك أسباب السعادة ، فكان البرزخ في حقك نعيماً ، وفزت بالجنة بعد ذلك وإذا جعلك مباركاً أينما كنت فقد حصل لك ما يتمناه الصالحون من الأعمال الصالحة الخالصة لله جل وعلا التي يترتب عليها الخير في المواطن الثلاثة في الدنيا ، والبرزخ ، والآخرة ، وقد دعا لك أيضاً فقال :

(وأن يجعلك ممن إذا أعطي شكر ، وإذا ابتلي صبر ، وإذا أذنب استغفر فإن هؤلاء الثلاث عنوان السعادة) أي عامتها ، فالله يجزي الشاكرين بالزيادة ، ويعطي الصابرين الأجر العظيم الذي لا يحصره حاصر ، ولا يعدّه عاد ، كما في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال فيما يرويه عن ربه :

{ كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله قال الله عز و جل : إلا الصوم ، فإنه لي و أنا أجزي به يدع شهوته وطعامه من أجلي } (1) متفق عليه من حديث أبي هريرة ر .

قوله : { وإذا أذنب استغفر } أي إذا وقع في الذنب بسبب بشريته التي يتعرض بها إلى ما يتعرض له البشر ، فيقع في المعاصي من حيث يشعر أو لا يشعر ، ولكن الله تعالى وعد ، ووعد الحق ، أن يغفر لمن استغفر وأن يتوب على من تاب ، وفي الحديث القدسي : { قال الله تعالى : يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ... يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار و أنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم يا عبادي ... } (2) رواه مسلم من حديث أبي ذر ر .

وقد أخبر رحمه الله في نهاية هذا الدعاء بأن هذه الثلاث الخصال هي عنوان السعادة ثم دخل في المقصود بقوله : (اعلم أرشدك الله لطاعته أن الحنيفية ملة إبراهيم أن تعبد الله وحده مخلصاً لله الدين كما قال تعالى :

[وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ] (الذريات:56) .

فهذه هي العبادة التي تسمى عبادة ، والتي يحوز صاحبها الأجر الوفير والخير الكثير . أمّا من خلط فعبد الله ، وعبد غيره فإن عبادته لا تكون عبادة لله وفي الحديث الذي يرويه النبي ﷺ

(1) الحديث أخرجه الإمام البخاري رحمه الله في كتاب الصوم باب هل يقال إني صائم إذا شتم ، وفي كتاب اللباس باب ما يذكر في المسك وفي كتاب التوحيد باب قول الله تعالى : [يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ] وباب ذكر النبي ﷺ وروايته عن ربه . وأخرجه الإمام مسلم رحمه الله في كتاب الصيام باب فضل الصيام واللفظ له .

(2) الحديث أخرجه الإمام مسلم في كتاب البر والصلة باب تحريم الظلم .

عن ربه : { قال الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه } (1) رواه مسلم من حديث أبي هريرة .

ثم استدل على ذلك بقول الله تعالى : [وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ] وفي هذه الآية ما يفيد بأن خلق الجن والإنس ما كان لشيء سوى العبادة ، فالله خلق العباد ليعبدوه ، ووعدهم بالمغفرة والجنة إذا عبدوه كما في حديث معاذ بن جبل ؓ أن النبي ع قال له : { يا معاذ أتدري ما حق الله على عباده ، وما حق العباد على الله ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً ، فقلت يا رسول الله : أفلا أبشر به الناس قال لا تبشرهم فيتكلوا } (2) متفق عليه .

وفي هذه الآية (3) دلالة على أن المقصود بخلق الجن والإنس هو أن يبتليهم الله بالأوامر والنواهي ، ويبتليهم بأمور أخرى تعتبر صوارف عن طاعة الله سبحانه وتعالى ، فمن تأثر بالصوارف ، وترك العبادة كان من الخاسرين ، ومن اشتغل بالعبادة ، وأخذ من الدنيا ما يستعين به على مطلوبه كان من الناجين ، وبالله التوفيق .

ثم قال : (فإذا عرفت أن الله خلقك لعبادته فاعلم أن العبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة ، فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت كالحدث إذا دخل في الطهارة) .

وأقول : لقد مثل الشيخ رحمه الله بمثال حسي يعرف به المثل المعنوي فالشرك يبطل العبادة كما أن الحدث يفسد الطهارة ، فمن أدخل في عبادته شركاً فقد أفسدها ، ولم تعد صالحة للاستفادة منها كما أن الحدث إذا دخل في الطهارة سواءً كان العبد قائماً في صلاته أو خارجاً عنها ، فإن طهارته قد بطلت ولا يمكنه أن يستمر في صلاته إن كان يصلي أو يدخل فيها إن كان لا يصلي ، وإن فعل فإنه يعتبر مجنوناً فاسد العقل إذا أراد أن العبادة تستقيم له مع وجود الشرك الأكبر ، وكم في آيات القرآن ما يدل على ذلك : قال الله عز وجل : [إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ] (النساء: من الآية 48) ، وقال الله على لسان عيسى بن مريم : [يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ] (المائدة: من الآية 72) وقال الله لنبيه محمداً ع : [وَلَقَدْ أَوْحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ] (الزمر: 65) ولما ذكر الله الأنبياء في سورة الأنعام قال جل من قائل : [ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ] (الأنعام: 88) ، ثم قال : (فإذا عرفت أن الشرك إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل ، وصار صاحبه من الخالدين في النار عرفت أن أهم ما عليك معرفة ذلك لعل الله أن يخلصك من هذه الشبكة وهي الشرك بالله الذي قال الله تعالى فيه : [إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ]

(1) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق باب من أشرك في عمله غير الله .
(2) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير باب اسم الفرس والحصار واللفظ له ، وأخرجه في كتاب اللباس باب إرداف الرجل خلف الرجل ، وفي كتاب الاستئذان باب من أجاب بلبيك وسعديك وفي كتاب =الرقائق باب من جاهد نفسه في طاعة الله ، وفي كتاب التوحيد باب ما جاء في دعاء النبي ع أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً .

(1) أي قول الله تعالى : [وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ] .

بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ] (النساء: من الآية 48) ، وذلك بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله في كتابه . (

ثُمَّ قَالَ : (القاعدة الأولى : أن تعلم أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ مُقَرُّونَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُدَبِّرُ ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَدْخُلْهُمْ فِي الْإِسْلَامِ وَالِدَلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى : [قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ] (يونس: 31)) .

وَأَقُولُ : مقتضى هذه القاعدة أن توحيد الربوبية لا يدخل به أحد في الإسلام فمن أقر بتوحيد الربوبية أقر بأن الله هو الخالق ، وهو الرازق وهو المدبر وهو المحيي والمميت الذي يُصِحُّ ويمرض ، والذي يغني ويفقر ، والذي يسعد ويشقي ، من أقر بهذا لا يدخله إقراره به في الإسلام ، لأنَّ المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم استباح دمائهم ، وغنم أموالهم ، وسبى نسائهم وأطفالهم كلهم كانوا يعتقدون أن الله هو الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور ، فلم ينفعهم ذلك شيئاً لأنَّهم عبدوا مع الله غيره وكفروا برسالة محمد ﷺ وأنكروا البعث وكفروا بالقرآن ، وأنكروه ، وزعموا أنَّه سحر أو كهانة ، فمن آمن بواحدة من هذه الأربع وكفر بثلاث أو آمن بثلاث وكفر بواحدة ، فإنَّه يعتبر كافراً حلال الدم والمال بعد أن تقام عليه الحجة ، فمن اعتقد ربوبية الله على كل شيء ، واعتقد رسالة محمد ﷺ واعتقد البعث بعد الموت ولكنَّه استباح اتخاذ وسائط مع الله عز وجل يدعوهم من دون الله ، ويزعم أنَّهم شفعاء إلى الله ، فإنَّه في هذه الحالة لا تقبل منه صلاة ، ولا صوم ، ولا زكاة ، ولا حج ، ولا يقبل الله منه أيَّ عمل صالح لقوله جلَّ وعلا : [وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ] (الزمر: 65) وبالله التوفيق .

قوله : (القاعدة الثانية : أنَّهم يقولون ما دعوناهم ، وتوجهنا إليهم إلّا لطلب القربة والشفاعة ، فدليل القربة قوله تعالى : [...وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ] (الزمر: من الآية 3) ودليل الشفاعة قوله تعالى : [وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ] (يونس: من الآية 18) والشفاعة شفاعتان : -

1- شفاعَةٌ منفية .

2- شفاعَةٌ مثبتة .

فالشفاعة المنفية ما كانت تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلّا الله والدليل قوله تعالى : [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ] (البقرة: 254) والشفاعة المثبتة : هي التي تطلب من الله ، والشافع مكرم بالشفاعة والمشفوع له من رضي الله قوله وعمله بعد الإذن كما قال تعالى : [مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ] (البقرة: من الآية 255) .

مقتضى هذه القاعدة أن الذين عبدوا غير الله لم يعبدوهم على أنَّهم هم الذين خلقوا هذا الكون ، وهم الذين رزقوا من فيه ، وهم الذين أحيوا الأحياء وأماتوا الموتى ، ولا أنَّهم هم الذين ينزلون

الغيث من السماء أو أنهم هم الذين ينبتون النبات من الأرض كل ذلك ما كانوا يعتقدون أنهم يتصرفون فيه ، ولكن كان قولهم وحجتهم أنهم عبدوهم من أجل أن يشفعوا لهم عند الله حيث قالوا : [... مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ...] (الزمر: من الآية3) وحيث قالوا : [... وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ...] (يونس: من الآية18) فما كان أحدٌ منهم يعتقد أن تلك الآلهة تخلق أو ترزق أو تحيي أو تميت كل ذلك لم يكن ، وإذا كان الأمر كذلك فيجب أن نتيقن أن هؤلاء القوم الذين كانوا يعتقدون هذا الاعتقاد ، قاتلهم رسول الله ع واستباح دمائهم ، وغنم أموالهم ، وسبى نسائهم وأطفائهم .

إذا علمنا ذلك علمنا أن من كان في هذا الزمان يعبد غير الله ، ويزعم أن فيه الولاية التي تجعله مقرباً إلى الله أكثر من غيره ، وأن الله لا يرد له شفاعاة ولا يرفض له طلباً من اعتقد ذلك فإنه يعتبر مشركاً شركاً أكبر مخرجاً من الملة .

علماً بأن الشفاعاة تنقسم إلى قسمين : -

1- شفاعاة منفية .

2- شفاعاة مثبتة .

فالشفاعة المنفية : هي التي تطلب من غير الله عز وجل استقلالاً، والشفاعة المثبتة هي التي تطلب من الله ، وشروطها اثنان :-

1. أن تطلب من الله عز وجل دون سواه قال الله تعالى : [مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ] (البقرة: من الآية255) .

2. أن يكون المشفوع فيه ممن أذن الله له في الشفاعاة فيه بأن يكون موحداً قال ع لما سأله أبو هريرة ر : { من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال رسول الله ع لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه { (1) رواه البخاري . وقد جاء في النصوص الشرعية أن الله يعطي الشفعاء الشفاعاة فيشفعهم في أقوام قد صاروا حمماً ، فيخرجونهم من النار ، ثم يدخلونهم الجنة ، ويضعونهم على نهر الحياة فينبتون فيه كما تنبت الحبة في حميل السيل (2) . فلا ينبغي ، ولا يجوز أن تطلب الشفاعاة من غير الله بل الذي ينبغي أن تطلب الشفاعاة من الله ، والله تعالى يقول : [مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ] وجاء في النصوص (3) أن الله يخرج أقواماً بعد شفاعاة الشافعين من النار لم يفعلوا خيراً يخرجهم بحثيات ثلاث ومن أجل ذلك فينبغي أن تطلب الشفاعاة من الله وحده ، وبالله التوفيق .

(1) الحديث أخرجه الإمام البخاري في كتاب العلم باب الحرص على الحديث .

(2) كما عند البخاري في كتاب الرقاق باب صفة الجنة والنار وكما عند مسلم في الحديث الطويل في كتاب الإيمان باب معرفة طريق الرؤية من حديث أبي سعيد الخدري ر .

(3) كما في الحديث الذي سبق تخريجه ، وكما جاء في مسند الإمام أحمد رحمه الله بترقيم إحياء التراث 11514 من حديث أبي سعيد الخدري أيضاً بلفظ : { ... يقول الله شفعت الملائكة ، وشفع الأنبياء ، وشفع المؤمنون وبقي أرحم الراحمين قال فيقبض قبضة من النار أو قال قبضتين ناس لم يعملوا لله خيراً قط قد احترقوا حتى صاروا حمماً قال فيؤتى بهم إلى ماء يقال له ماء الحياة فيصب عليهم فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل ... الحديث وأما لفظ : { ثلاث حثيات } فقد ورد في أقوام لم يدخلوا النار أصلاً كما في الحديث الوارد عند الإمام الترمذي وغيره من حديث أبي أمامة الباهلي ر قال : قال رسول الله ع : { وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً بلا حساب عليهم ولا عذاب مع كل ألف سبعون ألفاً و ثلاث حثيات من حثيات ربي } وقد صحح الحديث الإمام الألباني رحمه الله في صحيح الجامع برقم 7111 . والله أعلم .

ثم قال : (القاعدة الثالثة : أَنَّ النبي ﷺ ظهر على أناسٍ متفرقين في عباداتهم منهم من يعبد الملائكة ، ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار ومنهم من يعبد الشمس والقمر وقاتلهم رسول الله ﷺ ولم يفرق بينهم والدليل قوله تعالى : [وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ] (البقرة: من الآية 193) ودليل الشمس والقمر قوله تعالى : [وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ] (فصلت: 37) ، ودليل الملائكة قوله تعالى : [وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا] (آل عمران: من الآية 80) ، ودليل الأنبياء قوله تعالى : [وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ فُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ] (المائدة: 116) ، ودليل الصالحين قوله تعالى : [أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ] (الاسراء: من الآية 57) ، ودليل الأشجار والأحجار قوله تعالى : [أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى] (النجم: 19، 20) .

وحديث أبي واقد الليثي ر قال : { خرجنا مع النبي ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهدٍ بكفر وللمشركين سدرَةٌ يعكفون عندها ، وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط فمررنا بسدرَةٍ فقلنا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط } (1) الحديث .

وأقول : أن مقتضى هذه القاعدة أن كل ما دعي من دون الله من ملائكة وأنبياء وصالحين ، وأشجار ، وأحجار ، وغير ذلك كلها عاجزة عن أن تسعف عابديها بالمطلوب أو تنجيهم من المهروب ، والله سبحانه وتعالى قد أخبر أن كل مدعو من دونه لا يملك شيئاً وإن قل حيث يقول : [وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ] (فاطر: 14، 13) ، وقال جل من قائل : [يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِثْلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ...] (الحج: من الآية 73) ، إلى غير ذلك من الآيات التي تبين عجز المدعويين من دون الله عز وجل ، وضعفهم ، وعدم قدرتهم على إعطاء من عبدتهم شيئاً وإن قل ، ثم أنهم أيضاً عاجزون عن جلب النفع لأنفسهم فكيف بغيرهم .

إذاً فليس هناك ميزة لأحد دون أحد في هذا الباب ، وبهذا يعلم أن من عبد الملائكة أو عبد الأنبياء كعيسى ، وعزير هو ومن عبد الأحجار والأشجار سواء كلهم مشركون بالله ، والمعبودات من دون الله كلها عاجزة أن تنفع عابديها بشيء وإن قل وبالله التوفيق .

القاعدة الرابعة : (أَنَّ مشركي زماننا أغلظ شركاً من الأولين ؛ لأنَّ الأولين يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة ، ومشركو زماننا شركهم دائماً في الرخاء والشدة ، والدليل قوله تعالى : [فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ] (العنكبوت: 65) اهـ .

(1) الحديث أخرجه الإمام الترمذي في كتاب الفتن باب ما جاء لتركيب سنن من كان قبلكم ، وأخرجه الإمام أحمد رحمه الله في مسند الأنصار برقم 21390 بترقيم إحياء التراث والحديث صححه الإمام الألباني رحمه الله في صحيح الجامع 1 / 674 برقم الحديث 3601 المكتب الإسلامي وأشار إليه في المشكاة برقم 5408 وفي السنة 76 .

وأقول : إنَّ مشركي هذا الزمان زادوا على مشركي زمن النبي ﷺ كثيرا بحيث أن الذين كانوا في زمن النبي ﷺ كانوا يشركون في الرخاء ، ويخلصون في الشدة ويعتقدون أنَّ الشدة لا ينفع فيها إلا الله لم يبلغ بهم شركهم إلى أنَّ أولئك المدعويين يخلقون أو يرزقون أو يحيون ميتاً وإذا نظرت فيما هو مدون في هذا الزمن من قبل المشركين فإنَّك ترى العجائب .

ولقد قرأت في كتاب يسمَّى (نَفْسُ الرَّحْمَنِ) أتى به من اليمن قال فيه صاحبه إنَّ رجلاً ضاف عبد القادر الجيلاني ، وكان عبد القادر غائباً ، فأتى ملك الموت فقبض روح الضيف ، فقالت زوجة عبد القادر لقد أسأت إلى عبد القادر حيث قبضت روح ضيفه وهو في بيته ، وكان ملك الموت قد جمع أرواحاً فجعلها في زنبيل ، ثمَّ عرج بها إلى الله سبحانه وتعالى ، فلمَّا رجع عبد القادر أخبرته زوجته بالحادث ، فذهب ولحق ملك الموت وهو يحمل الأرواح في ذلك الزنبيل ، ثمَّ أنَّه ضرب زنبيل ملك الموت فسقط من يد ملك الموت ، فطارت الأرواح إلى أجسادها ، وعادوا كلهم أحياء . هذا الكلام قرأته في كتاب مطبوع قبل حوالي أربعين سنة ، وما زلت أذكر اسمه (نفس الرحمن) فانظر إلى هذه الرعونة !! وماذا بلغ إليه حال الخرافيين القبوريين الذين يعظمون أناساً حتى يجعلوهم آلهةً ، ويدَّعون ذلك بأخبارٍ مكذوبة كهذا الخبر . وأذكر أنَّه جاء إلينا وجلس عندنا رجلان من الصومال أحدهما اسمه علي بن الشيخ عثمان زياد ، وهذا درسنا عليه في اللغة ، والآخر اسمه عبد الصمد ، وكَمَّلَ دراسته في الجامعة الإسلامية فيما أذكر . قالوا : قرأنا على رجلٍ في الحبشة في كتاب الرُّبْد لابن رسلان ، فلمَّا بلغنا إلى قوله :

والأولياء ذو كرامات الرتب وما انتهوا لولدٍ من غير أب

فقال ذلك الرجل : بلى قد انتهوا ، فقالوا له : كيف ذلك ؟ قال : إنَّ فلاناً الشيخ الصوفي كان معروفاً بالصلاح ، وكان عقيماً ، فسخر منه رجل يعرفه . فقال : إن فلاناً حصل له ولد فسماه باسمي ، وجمع أصحابه وذهب بهم إلى ذلك الشيخ فلما جاءوا إلى الشيخ وجدوا أن للشيخ ولداً فنظروا إليه ، وعادوا مقتنعين بأن للشيخ ولداً وبعد أن ذهبوا ذهبَ بالولد .

فانظر أيضاً ما في هذه الرعونة ، وأنَّ فلاناً حصل له ولد ، وهو لم يكن له ولد وإلى غير ذلك من الأخبار الباطلة ، والحكايات التي يوهمون فيها الناس بصدق ما يدَّعون من القدرة لأوليائهم على ما لا يقدر عليه إلا الله فنعوذ بالله من الضلال .

وبهذا تعرف مدى ما بلغ إليه الخرافيون القبوريون في هذا الزمن من المبالغة في الشرك الذي زادوا به على شرك أبي جهل وأبي لهب ، وأمثالهم من مشركي العرب الذين قاتلهم رسول الله ﷺ فاستباح دمائهم ، وغنم أموالهم وسبى نسائهم وأولادهم ، ومع ذلك فإنَّ كثيراً من الناس بل ممن يدَّعون العلم لم يخرجوهم من الإسلام ، ولم يحكموا عليهم بالكفر مع أنَّ الله سبحانه وتعالى يقول لنبيه ﷺ : [وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ] (الزمر:65) ، فالشرك الأكبر يهدم الإسلام ويبطله كما يبطل الحدث طهارة المتطهر ، وبالله التوفيق وصلى الله وسلم على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه ، والحمد لله رب العالمين .

انتهى من إملائه الشيخ
أحمد بن يحيى النّجمي
في 10 / 3 / 1423 هـ